عدد ٣١ السنة الثانية

المنار

١٣١٥

مصر في يوم السبت ٩ جمادى الاخرة سنة ١٣١٧ الموافق ١٤ اكتوبر سنة ١٨٩٩

﴿ حجج مثبتي الكرامات ﴾

ذكرنا في مقالة سابقة حجج منكري الكرامات وبحثنا فيها ونذكر في هذه المقالة حجج المثبتين وننظر فيها وهي خمس على ما استقصاه السبكي

(الحجة الاولى) هي ماعبر عنها بقوله « احدها وهو اوحدها ما شاع وذاع بحيث لا ينكره الا جاهل معاند من أنواع الكرامات للعلماء والصالحين »

وفي هذه الحجة أن مانقل من الامور التي سموها كرامات على ضربين احدهما مافيه خرق لنواميس الكون ومخالفة لسنن الخلق التي ثبت في القرآن وفي العلم الطبيعي انها لاتتغير ولا تتبدل وهذا النوع قليل جدا ولا يكاد يثبت منه شيء برواية صحيحة توجب الظن الا قليلا . والظن في هذا المقام لايغني فتيلا لمعارضته للقطعي . ثانيهما ماليس كذلك كمكاشفة وشفاء مرض وقضاء حاجة وهذا النوع هو الذي شاع وذاع . وملأ الاسماع . وطاف في سائر البقاع . وكما يكثر هذا ويقل مايقابله فيما نقل عن صالحي هذه الامة كذلك الشأن فيما نقل عن سائر الامم وسيأتي بيانه

(الحجة الثانية) قصة مريم من جهة حبلها من غير رجل وحصول

الرطب الطري لها من الجذع اليابس وحصول الرزق عندها في غير أوانه من غير حضور اسبابه كما أخبر الله تعالى عنها بقوله (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم انى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) وبين السبكي بعد ماأورد هذا انها لم تكن نبية فتعين ان يكون ماجرى لها من الكرامة . ونقول نحن في هذا المقام ان لله تعالى في خلقه آيات تدل على ان قدرته تعالى حاكمة على سنن الكون لامحكومة بها . وقد قال تعالى « وجعلنا ابن مريم وامه آية » فجبلها على غير النحو المعهود في الخلق ليس لها فيه كسب ولا عمل بوجه ما بل كانت كارهة له فان كان يعدّ مما نحن فيه فقسارى مايدل عليه جواز وقوع مثله وهذا هو مراد السبكي وغيره بالاستدلال به وبنحوه مما يأتي . أما الوقوع بالفعل فلا يثبت الا بدليل قطعي . كالمشاهدة وكنص القرآن أو الخبر المتواتر تواتراً حقيقياً مستنداً الى الحس الذي لاشبهة فيه . قال بعض المحققين لو كان ماينقله قومنا من الكرامات التي لاتحصى واقعاً حقيقة لما احتاجوا في اقناع المعتزلة الى الاستنباط من الآيات بالوجوه الخفية التي لاتفيد المطارب ولا تثبت المدعى وهو ان الخوارق واقعة فعلا على أيدي الصالحين بل كانوا يفقؤن أعينهم بكرامة واحدة من تلك الكرامات التي لاتحصى . وان المتأخرين ليعدون أولياء تلك الازمنة التي حمي فيها وطيس الجدال بين سلفهم والمعتزلة بالالوف . أما وجه الآية في ابن مريم النبي وأمه المختلف في نبوتها فهو ان الاقسام العقلية في خلق الانسان أربعة (الاول) ما كان بغير واسطة ذكر ولا انثى وقد خلق الله تعالى آدم اول البشر كذلك (الثاني) ما كان بواسطة ذكر فقط وكذلك كان خلق أمنا حواء (الثالث) ما كان بواسطة ذكر

وأنثى وهو الناموس العام والسنة الالهية المطردة . ولما نفذت قدرته تعالى في الاقسام الثلاثة اراد ان ينفذها في القسم (الرابع) وهو ما كان بواسطة انثى فقط ليعلم من بلغه ذلك بالخبر الصادق ان قدرة الله تعالى حاكمة على نواميس الكون لا محكومة بها . وان الله على كل شيء قدير فلا يعتمد فيما وراء الاسباب الظاهرة التي اناط بها الامور الا عليه وحده . فانجلى بهذا ان هذه الآية الالهية ليست مما نسميه كرامات الاولياء فلا تصدق انثى غيرها بمثله

وأما حصول الرطب الطري من الجذع اليابس فهو ليس في القرآن وانما المذكور في القرآن قوله تعالى « وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيّا » وهو يصدق بالنخلة المثمرة بل هو المتبادر ولو كان الجذع يابساً لوصف باليبس لاظهار الآية . ومثل هذا يقال في مسئلة الرزق فان قولهم ان زكريا كان يجد عند مريم فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ليس في القرآن مايدل عليه وانما فيه انه كان يجد عندها رزقا وقد سألها (أنى لك هذا) حيث كان هو الكافل لها والقائم بالانفاق عليها (قالت هو من عند الله) ومثل هذا الجواب معتاد من المؤمنين فما من أحد منا الا وقد رأى في بيته في وقت ما رزقا لم يكن يتوقع وجوده وسأل عنه فأجيب من أهله بمثل « الله بعثه » وقوله (ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) لا يستلزم ماذكروه لانه يصدق بالهدية والهبة من حيث لا تنتظران وقد قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) وهو يصدق بتهيئة الاسباب التي لم تكن في حسبان الانسان ايضا وليس المعنى ان يرزقه بالكرامات وخوارق العادات . ومن المفسرين من قال ان معنى الحساب في الآية الاستحقاق . هذا وان وجود فاكهة الصيف في الشتاء ليس من

الخوارق كما لايخفى على الخبير. رب معترض يستدل بقوله تعالى « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب من لدنك ذرية طيبة » على ان ما رآه عند مريم كان من خوارق العادات ولذلك طلب من الله تعالى ان يمنحه كما منحها ويهب له الذرية على كبر سنه ويأس أهله. ونقول في الجواب ما كان لمؤمن ان يقول ان نبياً علم جواز خرق العادة من ولي او ولية فحمله ذلك على طلب مثله لنفسه وان كان يقتضيه كلام طائفة من المفسرين. ويكفي لاثارة ذلك الدعاء في نفس سيدنا زكريا عليه السلام عند مريم سماعه اسنادها الرزق لله تعالى والثناء عليه بلطفه بعبده حيث يرزقه بغير حساب فان المؤمن الكامل كلما سمع ذكر الله والثناء عليه تنمو عظمته في قلبه وكلما رأى انعامه على خلقه يزيد رجاؤه في فضله وكرمه. وحسبنا في هذا الجواب بيان ان الدعاء لايقتضي ان يكون مارآه من الخوارق وان كان لاينفيه أيضا. وسيأتي الكلام على ماروي في تفسير الآيات لان كلامنا الآن في الدليل القطعي

اعترف بعض منكري وقوع الكرامات بان ماوقع لمريم (عليها السلام) من الخوارق وأجابوا عنه بجوابين احدهما انها كانت نبية. ونقل السبكي عن القاضي انه قال (لم يقم عندي من أدلة السمع في امر مريم وجه قاطع في نفي نبوتها او اثباتها) وأنى يقوم له الدليل وهو على رأي من يقول ما جاز ان يكون معجزة لنبي جاز ان يكون كرامة لولي وهؤلاء لم يجعلوا فاصلا بين النبي والولي الا دعوى النبوة والتحدي بالخارقة والا فخطاب الملائكة لمريم وأمرهم اياها عن الله بالركوع والسجود أوضح دليل على نبوتها فان هذا تشريع وقد قالوا ان النبي هو من أوحي اليه بشرع يعمل به فان امر بأن يعلمه الناس كان نبياً ورسولا. واذا لم تكن مريم نبية كما هو رأي الجمهور

الذين يشترطون في النبي المذكورة فكرامتها الحقيقية هي كلام الملائكة . وهذا ليس من خرق السنن الالهية ولكنه من خرق العوائد بالنسبة لمجموع البشر لانه مما اختص الله تعالى به طائفة من خلقه أهلها له باستعداد روحاني مخصوص والله يختص برحمته من يشاء . و (الجواب الثاني) ان ما وقع لمريم كان اما معجزة لزكريا واما ارهاصا لعيسى عليهما السلام والارهاص عندهم مايتقدم بعثة النبي من الخوارق لتمدّ النفوس لقبول الرسالة وتصديق الدعوة . وأجيب عن الشق الاول بان المعجزة للنبي هي مايصدر على يده لا على يد غيره وعن الثاني بمثل هذا وهو ليس بسديد لان مايحصل للأم يصح ان يكون تمهيداً لتصديق دعوة الابن لاسيما اذا كانت الخوارق محتفة بحمله وولادته متعلقة بشؤونه . وقولهم (لو جاز هذا لجاز ان تكون كل معجزة لنبي ارهاصاً لنبي آخر يأتي بعده فيمتنع الاستدلال بها على نبوته) ممنوع فانه انما يتحدى بها مستدلا على صدقه فيما يبلّغه عن الله تعالى . وعجيب من السبكي وامثاله كيف غفلوا عن هذا .

قال السبكي وقريب من قصة مريم قصة ام موسى وما كان من الهام الله اياها حتى طابت نفسها بالقاء ولدها في اليم الى غير ذلك مما خصت به . قال امام الحرمين ولم يصر احد من اهل التواريخ ونقلة الاقاصيص الى انها كانت نبية صاحبة معجزة . اه ونحن لا نرتاب في ان الالهامات الصادقة هي مما يكرم الله تعالى بها اصحاب الارواح الطاهرة والنفوس الزاكية من عباده . وهذا من خوارق العادة بالنسبة الى الجمهور ولكنه ليس خارقا للنواميس الطبيعية ولا مخالفاً للسنن الكونية . وهكذا تكون الكرامات الحقيقية

(الحجة الثالثة) التمسك بقصة اصحاب الكهف ـ قال السبكي فان

لبثهم في الكهف ثلاثمائة سنة او ازيد من غير آفة مع بقاء القوة العادية بلا غذاء ولا شراب من جملة الخوارق ولم يكونوا انبياء فلم تكن معجزة فتعين كونها كرامة. وادعى امام الحرمين اتفاق المسلمين على انهم لم يكونوا انبياء وانما كانوا على دين ملك في زمانهم يعبد الاوثان فأراد الله ان يهديهم فشرح صدورهم للاسلام ولم يكن ذلك عن دعوة داع دعاهم ولكنهم لما وفقوا تفكروا وتدبروا ونظروا فاستبان لهم ضلال صاحبهم ورأوا ان يؤمنوا بفاطر السموات والارضين ومبدع الخلائق اجمعين. ثم اسهب في بيان انهم لم يكونوا انبياء. وفي هذه الحجة ابحاث (١) ان اصحاب الكهف كانوا من آيات الله تعالى لقوله تعالى « ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا » وقوله تعالى بعد ذكر حالتهم في الكهف (ذلك من آيات الله) فليس هذا مما نحن فيه كما سبق القول في حبل مريم عليها الرضوان ويوضحه البحثان التاليان له (٢) ان قوله تعالى « ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا » هو من حكاية اقوال المختلفين فيهم صرح بهذا المفسرون ويرجحه على قول من قال انه اخبار من الله تعالى امران « احدهما » ان الله تعالى عند ما قص نبأهم بالحق قال (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) قال البيضاوي وغيره وهذا يحتمل التكثير والتقليل وانما ذكر التحديد في العدد في سياق حكاية اقوال الخائضين في قصتهم و (ثانيهما) انه عقب على هذا القول بقوله تعالى (قل الله اعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض) وهو كالصريح في انه غير صحيح (٣) قلنا في كتابنا (الحكمة الشرعية) ان مقتضى كلام امام الحرمين انهم كانوا مشركين ثم هداهم النظر الى رفض الشرك واعتقاد توحيد الله تعالى كما هو ظاهر القرآن. وعلى هذا هل تتحقق في حقهم الكرامة التي

اشترطوا فيمن تظهر على يديه ان يكون مؤمنا ظاهر الصلاح . وعرفوا الصلاح بالقيام بحقوق الله تعالى وحقوق العباد ؛ وهذا لا يعرف الا بالشرع لاسيما عند الاشاعرة ـ وامام الحرمين من اجل ائمتهم والسبكي من اكبر علمائهم ـ الذاهبين الى انه لا حكم قبل الشرع لا في الاصول ولا في الفروع (٤) يروى عن ابن عباس (رضي الله عنهما) انهم كانوا بعد الايمان على شريعة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام . وليس عندنا دليل على انهم كانوا بعد عيسى او في زمنه واكثر ما ينقل عن ابن عباس في التفسير لا يصح عنه . وربما كانوا في زمن تختلف احواله الطبيعية عن هذه الازمنة والله اعلم

(الحجة الرابعة) مما اورده السبكي التمسك بقصص شتى مثل قصة آصف بن برخيا مع سليمان عليه السلام في حمل عرش بلقيس اليه قبل ان يرتد اليه طرفه على قول اكثر المفسرين بأنه المراد بالذي عنده علم من الكتاب وما قدمناه عن الصحابة (*) وما تواتر عمن بعدهم من الصالحين وخرج عن حد الحصر اه

اقول كان من حقه ان يجمل ما استنبطه من قصص الكتاب حجة واحدة وما ورد في غيره حجة واحدة لان التعدد انما هو في الجزئيات ولكنه اراد التكثير ليجعل حجج الاثبات بعدد حجج الانكار والشق الثاني من هذه الحجة هو عين الحجة الاولى . اما قصة الذي عنده علم من الكتاب فلا تنهض حجة لاحتمال انه كان نبياً او ان الاتيان بالعرش معجزة لسليمان اثبت بها نبوته لملكة سبأ ولا ينافي هذا انه جاء على يد غيره لان ذلك الغير

(*) هو ما أشرنا اليه في الحجة الخامسة من حجج المنكرين ووعدنا بسرد تلك الكرامات التي أسندها اليهم والبحث فيها عند ذكر حجج الاثبات ولكن قد طالت هذه المقالة فاضطررنا الى تأخير ذلك لمقالة اخرى

من اتباعه وهو الذي امره به فكان آية من الآيات التي اعطاه الله اياها قد استتبعت آية اخرى . ويدل على ان الاتيان بالعرش من نعم الله على سليمان عليه السلام شكره لله تعالى عليه (فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم اكفر) فلا يأتي هنا قولهم ان المعجزة لابد ان تظهر على يد النبي نفسه . قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى (قال ياأيها الملأ ايكم يأتيني بعرشها) مانصه (اراد بذلك ان يريها بعض ماخصه الله به من العجائب الدالة على عظيم القدرة وصدقه في دعوى النبوة) . ومن المفسرين من قال ان الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه قال البيضاوي فيكون التعبير عنه بذلك للدلالة على شرف العلم وان هذه الكرامة كانت بسببه . وقال بعضهم انه جبريل او ملك اخر

فتلخص مما تقدم ان قصارى مايحتج به من الايات الكريمة ان الله اكرم امّ موسى بالالهام الصحيح واكرم السيدة مريم بكلام الملائكة وليس في شيء من هذين الامرين مخالفة لسنن الله تعالى في الخلق . وان لله تعالى في خلقه ايات لاتنطبق على سنن الكون المعروفة كحمل مريم وولادتها من غير افتران برجل وكالضرب على اذان اهل الكهف سنين عددا . فأما الالهام فانه لايزال يقع في كل عصر لاصحاب النفوس العالية فهو كرامة اختصوا بها من دون سائر الناس واما كلام الملائكة للناس فلم يثبت لغير الانبياء بوجه قطعي الا لمريم فان كانت غير نبية فهو كرامة قطعية لها تدل على جوازه لغيرها وورد في آثار ظنية وقوع ذلك لغيرها . ولعل كلامهم لغير الانبياء من قبيل الالهام . وقد وفينا هذا البحث حقه في كتابنا الحكمة الشرعية . واما الايات الاخرى فانها توجد في كل عصر ويسميها الفلاسفة (فلتات الطبيعة) والمؤمن

يستدل بها على قدرة الله تعالى ولا يستنكر ان يكون لها اسباب خفية لم يطلع الله تعالى عليها عباده (وما أوتيتم من العلم الا قليلا)

باب التربية والتعليم

ورد الينا مايأتي من حضرة الكاتب الفاضل عبد العزيز افندي محمد وكيل النيابة في محكمة الزقازيق فتلقيناه بالقبول مقرين بفضله شاكرين له سعيه وهو

حضرة الاستاذ الفاضل صاحب مجلة المنار المفيدة

لما رأيت ان مجلتكم التي هي مجني الفوائد العلمية وملتقى الشوارد الحكمية قد وسعت في صفحاتها مكانا لنشر مايختص بالتربية والتعليم ورأيتكم تنتقون من ذلك أقوم الطرق وأجلها اثراً رجوت ان تتفضلوا علي بتخصيص موضع وان صغيرا منها أقدم فيه لقراء هذه المجلة كتابا جليلا في التربيـة العملية أنا مشتغل بنقله من الفرنساوية الى العربية وأود نشره فيها تباعا . الكتاب من تصنيف الحكيم المربي الفونس اسكيروس سماه (أميل القرن التاسع عشر) عارض به الحكيم الشهير جان جاك روسو في كتابه المؤلف في التربية المسمى (أميل القرن الثامن عشر)

هـذا الكتاب النفيس حكي فيه مؤلفه حكاية زوجين فرنساويين قضى عليهما الله بالتفرق لسجن الزوج في فرنسا بسبب جريمة سياسية على مايظهر واغتراب الزوجة في انكلترا وقد شعرت الزوجة في أوائل أيام الفراق انها حبلى فأخذت تكاتب زوجها ويكاتبها في طرق التربية اللازم اتباعها في شأن الولد وقد تضمنت هذه الرسائل من تلك الطرق أصحها وأكفلها بوصول الانسان الى السعادة ولا أريد ان اطيل في وصفها في الاطلاع عليها غناء

وفي هذا المقام يجب علي ان أخاص الشكر لحضرة الاستاذ الاكبر صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبـده مفتي الديار المصرية فانه حفظه الله هو الذي نبهني الى هذا الكتاب المفيد وحثني على ترجمته ونشره كما هو شأنه في الارشاد الى كل مايفع الامة والوطن فجزاه